

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَاسَمْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا

عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: 147]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ جَزَاءَ الْمُنَافِقِينَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَاسْتَنْثَى التَّائِبِينَ، بَيَّنَّ هُنَا أَنَّهُ لَا يَعْذِبُهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ مِنْ عَذَابِهِمْ شَيْءٌ؛ فَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَاسَمْتُمْ﴾، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ لِلَّهِ ﷻ فِي أَنْ يَعْذِّبَكُمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَجْلِبُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ ضَرًّا؛ فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِ خَلْقِهِ؛ إِذَا قَامُوا بِالشُّكْرِ وَالْإِيمَانِ.

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿شَكَرْتُمْ﴾: (شكر) أصل الشُّكْرِ: الثَّنَاءُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِمَعْرُوفٍ يُولِيكَه، وَهُوَ الرِّضَا بِالْيُسِيرِ، وَإِظْهَارُ النِّعْمَةِ، وَدَابَّةُ شُكُورٍ إِذَا أَظْهَرَتْ مِنَ السَّمَنِ فَوْقَ مَا تُعْطَى مِنَ الْعَلْفِ، وَيُضَادُّهُ: الْكُفْرُ، وَهُوَ نَسْيَانُ النِّعْمَةِ وَسْتَرَاهَا⁽¹⁾.

✽ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

”مَا يَصْنَعُ اللَّهُ، أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ، بِعَذَابِكُمْ، إِنْ أَنْتُمْ تُبْتَغُونَ إِلَى اللَّهِ وَرَجَعْتُمْ إِلَى الْحَقِّ الْوَاجِبِ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ، فَشَكَرْتُمُوهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَهَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ، بِالْإِنَابَةِ إِلَى تَوْحِيدِهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِهِ، وَإِخْلَاصِكُمْ أَعْمَالَكُمْ لَوَجْهِهِ، وَتَرْكِ رِيَاءِ النَّاسِ بِهَا، وَأَمْنَتُمْ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَصَدَّقْتُمُوهُ، وَأَقْرَرْتُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَلْتُمْ بِهِ؟ فَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى تَعْذِيبِكُمْ، بَلْ يَشْكُرُ لَكُمْ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مِنْ طَاعَةٍ لَهُ وَشُكْرٍ، بِمَجَازَاتِكُمْ عَلَى ذَلِكَ بِمَا تَقْصُرُ عَنْهُ أَمَانِيَّكُمْ، وَلَمْ تَبْلُغْهُ أَمَالِكُمْ“⁽²⁾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شكر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/427.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 343 - 9/342.

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

دلالة الفصل والاستئناف:

استئناف لبيان
أن علة التعذيب
إنما هي مجازاة
الكفر

الجملة في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَعَاسَمْتُمْ﴾ فصلت عما قبلها؛ لأنها "استئناف مسوق لبيان أن مدار تعذيبهم وجودًا وعدمًا إنما هو كفرهم لا شيء آخر؛ فيكون مقررًا لما قبله من إثابتهم عن توبتهم" (1).

دلالة الاستفهام:

استفهام معناه
التقرير والنفي،
فهو يقرر انتفاء
عذاب المؤمنين
الشاكرين

دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ على معنى التقرير والنفي، والمراد: لا يعذب الله شاكراً ولا مؤمناً؛ فالاستفهام "أريد به الجواب بالنفي فهو إنكاري، أي لا يفعل بعذابكم شيئاً" (2)؛ حيث حسنت توبتكم، "وإنما المقصود حمل المكلفين على فعل الحسن، وترك القبيح؛ لينالوا السعادة العظمى، فمن امتثل وأطاع فكيف يليق بكرمه تعذيبه" (3).

السّر في نفي الكلام بالاستفهام دون الإخبار:

جاء النفي
بأسلوب
الاستفهام
للمبالغة

دلّ الاستفهام على النفي في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ ولم يأت النفي بصيغة الإخبار، فلم يقل: (إنّ الله لا يعذبكم)؛ لأنّ النفي بالاستفهام مفيد "للنفي على أبلغ وجه وأكده، أي أي شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم؟ أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يستجلب به نفعاً، أم يستدفع به ضرراً؟ كما هو شأن الملوك وهو الغني المتعالي عن أمثال ذلك" (4).

خصوص المخاطب وعمومه:

الخطاب عام
للناس، وقد
يُخصّ به
المنافقون

جاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/247.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/245.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/520.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/247، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/383.

وَعَامَنْتُمْ﴾ صالحاً أن يكون للأمة جميعاً، أو خاصاً بالمنافقين "قال الكلبي: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ يعني المنافقين. وقال ابن عباس في رواية عطاء: ما يريد الله بعذاب خلقه"⁽¹⁾.

بلاغة الالتفات:

إذا كان المراد بالخطاب في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ خصوص المنافقين، فإنه يكون "على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ارتفاقاً بهم"⁽²⁾، فقد خاطبهم في الآية السابقة بصيغة الغائب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ما لحقه، فتوجيه الخطاب لهم بقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ يكون من الالتفات، رفقا بهم ودعوة لهم.

دلالة تقديم الشكر على الإيمان:

تقديم الشكر على الإيمان، في قوله تعالى: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَامَنْتُمْ﴾، فإن قيل ما علة ذلك؟ "قيل: لأنه عني به معرفة النعمة التي يتوصل بها إلى معرفة المنعم، ومعرفة المنعم هي الإيمان، فإذا الشكر على هذا الوجه مقدم على الإيمان؛ لأنه أرفع منه وهو لا ينفك عن الإيمان، والإيمان قد ينفك عنه"⁽³⁾، ولأن من له عقل ينظر إلى ما عنده من النعم العظيمة في خلقه وخلقه؛ فيشكر على ذلك؛ "فهذا الشكر المجمل مُقَدَّمٌ عَلَى الْإِيمَانِ، فَلِهَذَا قَدَّمَهُ عَلَيْهِ فِي الذِّكْرِ"⁽⁴⁾. ومن دواعي تقديم الشكر على الإيمان "أن العبد ينظر إلى النعم فيشكر عليها ثم يؤمن بالمنعم فكان الشكر سبباً للإيمان: متقدماً عليه"⁽⁵⁾.

وقد يُخَصَّصُ به
المنافقون على
الالتفات رفقا
بهم ودعوة لهم

الشكر يؤدي
إلى الإيمان، لأن
النعمة تبعث
على التفكير
وشكرها، وهذا
يقود إلى الإيمان

(1) الواحدي، البسيط: 7/169.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/245.

(3) الراغب، تفسير الراغب: 4/209، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1928.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/252 - 253.

(5) ابن جزي، التسهيل: 1/214.

دلالة عطف ﴿وَأَمَنْتُمْ﴾ على ﴿شَكَرْتُمْ﴾:

عطف الإيمان
على الشكر
عطف العام
على الخاص،
والمسبب على
السبب

عطف الإيمان على الشكر في قوله تعالى: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ﴾، من باب "عطف خاص على عام، أو مسبب على سبب، لأن الشكر سبب في الإيمان، فإن الإنسان إذا تذكّر نعم الله حملته على الإيمان" (1).

وفيه إشارة إلى منزلة الشكر؛ إذ إنّه صرّف القلب بالكلية إلى المنعم، واعتقاد بأنّه وليّ النعم وموليها، واعتراف باللسان، وعمل بالأركان، كما قال سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

الإيجاز بحذف جواب الشرط:

الحذف تعويذاً
على دلالة
السياق على
المحذوف

قوله تعالى: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ﴾ شرط، ولكنّه حذف جوابه؛ حيث "يدلّ عليه ما قبله أي: إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ فَمَا يَفْعَلُ بِعَذَابِكُمْ" (2)، فلمّا دلّ عليه الكلام حذفه إيجازاً، والإيجاز معدن البلاغة ولبها.

بلادة التذييل:

تذييل ببيان
صفات الله
تعالى إزاء شكر
عباده وإيمانهم

ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ تذييلاً "بما يدلّ على الثواب والنعم لأهل الإيمان، ومن ينضمّ إليهم من التائبين" (3). وذكر الصفة الأهم لمضمون الآية في التذييل وهي أنّ شأن الله تعالى الدائم أنّه مثير الطائع، عليم بموضع طاعته.

السّرّي وصف الله تعالى بالشكر، والشكر من صفات العباد:

وصف الله
تعالى بالشكر
للدلالة على أنّه
يقبل القليل من
عباده، ويجازي
عليه الأجر
الكثير

وصف الله تعالى نفسه بأنّه شاكر؛ لأنّه يقبل القليل من عباده، ويجازي عليه الأجر الكثير، "فالشكر من الله تعالى هو الرضا

(1) الصاوي، حاشية الصاوي: 1/238.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/114، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/247، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/383.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1928.

بِالْقَلِيلِ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِصْعَافُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ، وَالشُّكْرُ مِنَ الْعَبْدِ:
الطَّاعَةِ، وَمِنْ اللَّهِ: الثَّوَابُ“⁽¹⁾.

استعار الشكر للدلالة على الثواب:

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ ذكر الشكر وأراد
أنّه يثيب عباده، فسمّى "ثواب الطائعين شكرًا منه، وذلك إجلال
للطاعة، وتشريف للمطيع، ومنّة وفضل منه سبحانه فوق منته
وفضله، وأنّ هذا تعليم لنا لنشكر للمحسن" ⁽²⁾، فالمراد من ذكر
صفة الشكر "في حقه تعالى كونه مثيرًا على الشكر" ⁽³⁾.

إثارة التعبير بصيغة الفاعل على المبالغة:

عبر تعالى عن شكره باسم الفاعل دون صيغة المبالغة، فلم يقل:
(شكورًا)؛ "لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ يَتَقَبَّلُ وَلَوْ أَقَلَّ شَيْءٍ مِنَ الْعَمَلِ، وَيُنَمِّيهِ" ⁽⁴⁾.

الجناس الاشتقاقي في: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْنَتْمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾:

جاء في الآية لفظان من جذر واحد وهما قوله: ﴿شَكَرْتُمْ﴾،
و﴿شَاكِرًا﴾ على طريقة الجناس الاشتقاقي، تأكيدًا لِمَعْنَى الشُّكْرِ
بتكرار مادّته اللغوية.

دلالة وصفه ﷺ بالعلم:

وصف نفسه بالعلم؛ لتربية المهابة، ولأخذ الحيطة في العمل؛ فهو
سبحانه عليم بما تصنعون، يعلم جميع الجزئيات قبل الكليات؛ فهما
عنده سواء؛ فليحذر المنافقون والذين يخالفون أمره بأنّ العقاب
بهم موصول، فإنّ الله تعالى عليم "بمن آمن وشكر فيجازيه، ومن
كفر فيعاقبه" ⁽⁵⁾.

عبر عن ثوابه
تعالى بالشكر
تشريفًا للطاعة
والمطيع، وبيان
منّته وفضله

أعرض عن
صيغة المبالغة
ليبين أنّه يقبل
أقلّ العمل
تفضلاً منه

جمال التعبير
اللفظي بإيراد
ألفاظ من جذر
واحد في جملة
واحدة

دعوة للإخلاص
لعلمه بالسرائر

(1) البَغَوِيُّ، معالم التنزيل: 1/716، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/128، والْقُرْطُبِيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/427.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1928.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/253، والخازن، لباب التأويل: 1/441.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/115، والهريري، حقائق الروح والريحان: 6/431.

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.

إيثار التعبير بصفة ﴿عَلِيمًا﴾ بدلًا من (عالم):

آثر التعبير بـ (عليم) للدلالة على المبالغة في علمه سبحانه؛ فهو يعلم "جميع المعلومات التي من جملتها شكركم وإيمانكم فيستحيل أن لا يوفيكم أجوركم⁽¹⁾".

(1) أبو السعود، إرشاد العقْل السليم: 2/247.



عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن

الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 8، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-60-6

يشتمل على إرجاعات ببلوجرافية.

مج. 8: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-60-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»